مجلة أبعاد
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلد 08، العدد 02، 2021

الجمال من منظور أبي حيان التوحيدي

Beauty from the perspective of Abu Hayyan al-Tawhidi

حشلافي أمحمد [1*]

hachelafi4566@gmail.com

[1] كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة طاهري محمد بشار– الجزائر (مخبر الفلسفة وتاريخها جامعة وهران 2)

****

تاريخ الإرسال: 2021/09/20	تاريخ القبول: 2021/12/25	تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

حاولت في هذا المقال التعرف على الفكر الجمالي لأبي حيان التوحيدي ويكفي أن نقرأ الإمتاع والمؤانسة أو الهوامل والشوامل لنقف بجلاء على مقاربات فلسفية في الجمال عاشها هو شخصيا وعرض لأهم مفاهيمها، حيث برز كصاحب ذوق ملم بتفاصيل الجمال، فقد أبدى براعة عجيبة في بلورة هذا الموقف حيث استبغت رؤيته للجمال برؤية يونانية وثقافته الاسلامية.

ولتحليل هذه الإشكالية اعتمدت على منهج التحليل النقدي، حيث قمت أولا بعرض أهم مواقفه من الجمال ثم قمت بمقارنتها بأفكار أفلاطون وأرسطو، وأفلوطين، وركزت فيها على مواطن التشابه.

الكلمات المفتاحية: الجمال؛ التناسب؛ التوحيدي؛ النفس؛ المحاكاة.

Abstract:

In this article, I tried to get acquainted with the aesthetic thought of Abu Hayyan al-Tawhidi. And he showed amazing ingenuity in crystallizing this position and the extent of mutual convergence between philosophical ideas. He did not differ from his predecessors in the interest in beauty. He started from Islamic law and benefited from Greek philosophical ideas To analyze this problem, I relied on the methodology of critical analysis, where I presented his view of beauty, and then compared it with the ideas of Plato, Aristotle and Plotinus, and focused on points of similarity.

Keywords: beauty; proportionality; Al-Tawhidi ; self ; simulation.

* المؤلف المراسل: hachelafi4566@gmail.com

1. مقدمة:

إن العناية التي لقيها سؤال الجمال في الفكر الإسلامي عامة وفكر أبو حيان التوحيدي خاصة فاق كل اعتبار،حيث بذل مجهودات كبيرة في هذا السبيل حتى أنه اقترب من تأسيس نظرية في علم الجمال العربي الإسلامي، ويمكن الإبانة على ذلك من خلال ما أمدنا به من مفاهيم جلها يتصل بالنظر الجمالي وطريقة إدراكه والتعبير عنه.

والجدير بالذكر أن موضوع الجمال ليس جديدا على زمان التوحيدي وبعده في الفكر والأدب العربي الإسلامي فقد سبقه الجاحظ الذي يمكن اعتباره معلمه الأول في الجمال حيث تكلم عنه بإسهاب كبير.

لقد امتلك التوحيدي ثقافة الناقد الخبير بشؤون الفن والجمال، حيث عرف الجمال بنوعيه الروحي والمادي كما بين ماهية التذوق الجمالي وشروطه ولم يفته أيضا تحليل العمل الفني كتعبير جمالي يبدعه الإنسان، فقد برز كشخصية فلسفية تطرح الأسئلة في كل ما يقع أمامها .

ومن أجل هذا سأحاول في هذا المقال التنقيب في مؤلفاته العديدة قصد معرفة نظرته الجمالية وما أظنني مستوفيا لكل متطلبات هذا الموضوع في هذه السطور القليلة فلاشك أن الكلام عن كل أرائه في الجمال سيملأ صفحات كثيرة قد لا يتسع لذكرها في هذا المقال لذلك لابد من الإيجاز واستخلاص ما هو أساسي من أفكاره.

والإشكال الذي أريد إثارته في هذا المقال طرحته على النحو التالي:

ما موقف التوحيدي من الجمال؟ وهل انفرد التوحيدي بنظرة خاصة للجمال لم تتوفر عند سابقيه أم انه كان مجرد مقلد لفلاسفة اليونان؟

قبل أن أجيب عن هذه الإشكالية انطلقت من الفرضيتين التاليتين:

أ. التوحيدي رائد من رواد علم الجمال الإسلامي استطاع أن يؤسس نظرية عربية في الجمال استفاد فيها من فلاسفة اليونان وحرص فيها على تغليب المرجعية الإسلامية.

ب . كل ما ذكره التوحيدي في الجمال مجرد شرح لآراء سبقه إليها العديد من المفكرين دون أن يضيف فيها شيء.

قبل الدخول في صلب الموضوع آري من الضروري الإشارة إلى بعض الدراسات التي اهتمت بمفهوم الجمال عند التوحيدي، وقد اخترت دراستين الأولى:

وهي للباحث السوري رحمه الله عفيف بهنسي والموسومة بـ الفكر الجمالي عند التوحيدي،

المجلس الأعلى للثقافة 1997 اعتبره أول فنان وفيلسوف عربي تطرق لعلم الجمال ولامس الكثير من جوانبه، حيث استطاع أن يقدم فلسفته الجمالية عن خبرة جمالية إبداعية فقد تحدث عن الجمال ومعاييره وتحدث أيضا عن مسألة التذوق الجمالي ومستلزماته كما تعرض لقضية الإبداع الفني في الفنون العربية...الخ

أما الثانية:

فهي للناقد والكاتب السوري عزت السيد أحمد فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي منشورات وزارة الثقافة دمشق(2006) حيث اعتبره ثاني مفكر عربي استطاع الوقوف على جدلية الجمال بين الذاتي والموضوعي بعد الجاحظ وقوف ضليع لكُنه الجمال وحقيقته حيث تساءل عن طبيعة الجمال وحاول الإجابة عنه يقول عنه عزت السيد أحمد "إن التوحيدي قد نثر ما يمكن أن نسميه نظريته الفنية والجمالية بين كتبه نثر اللؤلؤ بين حبات العقد إننا نسمح لأنفسنا الزعم بأن ما قدمه أبو حيان يكاد يرقى إلى مستوى نظرية إن لم تكن متكاملة تماما فانه لا ينقصنا الكثير أبدا حتى تمنح شرف التكامل (أحمد، ع، 2006، 77، 78)

إن الغاية من الحديث عن الخطاب الجمالي في فكر التوحيدي هو الكشف عن طبيعة التجربة الجمالية التي خاضها هذا المفكر فقد وضح لنا مدى التواصل بين مكونات الجمال وقيمه الروحية والحسية سواء كان ذلك في الطبيعة أو الفنون، زيادة على ذلك سيلحظ القارئ كيف أحاط التوحيدي نسقه الفكري ببنية فلسفية عميقة لم يقف فيها عند حد الوصف، بل تعداها ليلج إلى الباطن خاصة في دراسة الظاهرة الجمالية، يضاف إلى ذلك أن التوحيدي إلى جانب تأثره بأرسطو تحت تأثير أفلاطون وأفلوطين أضفى على الجمال ميزة خاصة قلما أن نجد لها نظير في الفكر العربي الإسلامي.

2. مفهوم الجمال في فكر التوحيدي:

1.2 التعريف بالتوحيدي:

هو علي ابن العباس أبو حيان التوحيدي البغدادي، كنيته "أبو حيان", وهي كنية غلبت على اسمه فاشتهر بها، ويرجع جل المؤرخين سبب تلقيبه بالتوحيدي لأن أباه كان

يبيع نوعا من التمر ببغداد اسمه التوحيد(أحمد،ع،1997، 09) كانت ولادة أبي حيان في بغداد سنة 310 هجرية، أما وفاته فكانت في شيراز سنة 414 هجرية، عاش أكثر أيامه في بغداد وإليها ينسب.

امتاز أبو حيان بسعة الثقافة وحدة الذكاء وجمال الأسلوب، حيث وصفه ياقوت الحموي في معجم الأدباء قائلا:" إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق المتكلمين ومتكلم المحققين وإمام البلغاء..."(إبراهيم،ز،04) وقال عنه أحد الباحثين:" التوحيدي كان فيلسوفا مع الفلاسفة ومتكلما مع المتكلمين ولغويا مع اللغويين ومتصوفا مع المتصوفين"(إبراهيم،ز، 20) ترك أبو حيان التوحيدي مؤلفات عديدة نذكر من بينها: الإمتاع والمؤانسة، البصائر والذخائر، الصداقة والصديق، أخلاق الوزيرين، المقابسات الهوامل والشوامل،الإشارات الإلهية.

2.2. الجمال عند التوحيدي:

إن القيام بتحديد مفهوم الجمال عند التوحيدي يقتضي قراءة فاحصة لأهم مؤلفاته والتطرق لخطابه الفلسفي الذي طرح فيه الكثير من الآراء حول الجمال، فالبر غم من أنه لم يبحث فيه كبحث مستقل وفق قصديه واضحة إلا أنه لامس منه جوانب كثيرة حيث قدم صورة شاخصة عن الجمال كان فيها أقرب إلى الفلسفة منه إلى الأدب ولعل أبرز موقف من الجمال عند التوحيدي يظهر من خلال تلك التساؤلات التي طرحها على لسان مسكويه في كتابه "الهوامل والشوامل" وحاول الإجابة عنها،حيث تساءل التوحيدي مثله مثل الجاحظ عن حقيقة الجمال قائلا "ما سبب استحسان الصورة الحسنة وما هذا الولوع الظاهر والنظر والعشق الواقع في القلب والصيانة المتيمة للنفس والفكر الطارد للنوم والخيال الماثل للإنسان؟ هذه كلها آثار الطبيعة أم هي عوارض النفس؟ أم هي خيالية من العلل الجارية على الهذر" (التوحيدي أ،1951، 140) يبدو انه عندما حاول الإجابة عن هذه الأسئلة قدم تعريفا دقيقا للجمال،حيث ذكر بأن الجمال :" كمال في الأعضاء وتناسب في الأجزاء مقبول عند النفس (التوحيدي،أ، 1951، 140) والواضح من كلامه أنه يربط الجمال بصفتي الكمال والتناسب ويجعل منهما معيارا جوهريا لكل ما نعتقد بأنه جميل، علاوة على ذلك اعتبر الكمال أليق بالأشياء المعقولة "(إبراهيم،ز، 271) أما التناسب فعده من الأسباب الأولى لجمال الأشياء المحسوسة وهو أجلى مظهر من مظاهر الجمال التي تخضع لمفهوم التمام حيث يرى أن

الصورة الجميلة هي الصورة التي حققت التناسب في عناصر مكوناتها (حسين، ص، 2003، 95)

وعندنا أن هذا النص بالغ الدلالة فهو بمثابة تفصيل في مفهوم الجمال الحسي الذي يشترط فيه بلوغ مفهوم التمام،حيث يعرف التمام بأنه " بلوغ الشيء الحد الذي ما فوقه إفراط وما دونه تقصير"(علي، ش،1985، 204) ويستفاد من هذا النص أن هذه الوسطية القائمة على الاعتدال بين الزيادة والنقصان في الموجود هي سر إدراك الجمال عند التوحيدي،حيث يشترط عدم تجاوز مقدار الانسجام وهو يعني موافقة الشيء لطبيعته فالطبيعة عند التوحيدي:" تعطي صورتها لكل شيء بحسب قبول ومواتاته (...) فاختلاف الصور إنما ينشأ من اختلاف المواد وهذا أصل لا أصل له وعلة لا علة لها لأنه لم يفعل فاعل على ذلك بل الصورة من شأنها هذا والمادة من شأنها ذاك، والأمر مستتب على شتى ما ترى"(التوحيدي، أ،1989، 93) ويذهب التوحيدي إلى اعتبار:" الجمال المادي المحسوس هو صورة تابعة لاعتدال المزاج وصحة مناسبات من أعضاء بعضها إلى بعض في الشكل واللون وسائر الهيئات(التوحيدي، أ، 1951، 242) فالحسن هو اعتدال ما ومناسبة ما صحيحة بين أمزجة وأعضاء.

لقد بين التوحيدي أن إدراك الجمال بين الناس نسبي،حيث ميز بين نوعين من الجمال وهما الجمال المادي والجمال المثالي وحدد خصائص كل منهما وطبيعة الإدراك في كليهما حيث تدرج التوحيدي من أبعاد الجمال ومفاهيمه بين الجمال المطلق فالكوني إلى الجمال الفني الحسي المدرك.

فأما الجمال المادي فيدرك بالحس وهو متغير لأن معرفته إنما تكون عن طريق الحواس الخاضعة للزمان والمكان،وهذا الجمال يقابل الجسد وهو مرتبط بالاستقصات والهيولات ويتصف بالنسبية لأنه خاضع إلى عناصر تؤثر في تقديره وهي الإحساس، العادة، الشرع الفكر، الشهوة يقول التوحيدي في هذا السياق:" أما الحسن والقبيح فلابد له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجوز فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا فيأتي ويرفض ذاك ومناشئ الحسن والقبيح كثيرة منها طبيعي ومنها بالعادة ومنها بالشرع ومنها بالعقل ومنها بالشهوة فإذا اعتبر هذه المناشئ صدق الصادق منها وكذب الكاذب وكان استحسانه على قدر ذلك"(التوحيدي، أ، 1944، 2/ 150)

ولنا في الموضوع ملاحظتان أولهما أن الجمال الحسي عند التوحيدي متغير خاضع للزمان والمكان يتجسد في صفات قائمة في الأشياء ذاتها وإدراكه إدراك نسبي لان الحس يتدخل فيه لذلك فهو يختلف من إنسان لأخر وثانيهما هو أنه لما كان معيار إدراك الجمال الحسي هو التمام فإن كل خطأ في إدراك الكمال إنما مصدره تدخل الحواس في الحكم ومن هنا قال بالجمال الموضوعي الذي يتمثل عنده فيما يتصف به الشيء من ترتيب وتناسب ووضوح وغائية، وفيما يتضمنه من انسجام ووحدة. حيث يستفسر التوحيدي عن إن كان الجمال ذاتيا أو موضوعيا أو ذاتيا وموضوعيا معا ويجيب على لسان ابن مسكويه " الطبيعة تتلقى أفعال النفس وأثارها لذلك فإنها تجعل هذه الصور وفق رغبة النفس وحسب استعدادها لقبول هذه الصور."(أحمد،ع،1997، 140)والمتأمل لحديث التوحيدي هذا يدرك أن طبيعة الجمال عنده تختلف باختلاف أحوال النفس ودرجة قبولها لما هو حسن فهناك موضوع مدرك وذات مدركة.

وأيا ما كان الأمر فإن الجمال الحسي عنده متوقف على التوازن والتناسب لكن يشترط التوحيدي ضرورة تناسب الموضوع الجمالي بين الوظيفة والتعبير بين الشكل والمضمون بين الذات والموضوع"(عفيف، ب، 1997، 61) لأن تذوق الجمال يخضع لعاملين أساسين العامل الأول هو اعتدال مزاج المتذوق فلا ينفر من الغريب المطرب والشاذ المنحرف والعامل الثاني تناسب أعضاء الشيء....ليس بإمكان الوهم أن يجمع هذه الشروط التي تعجز الطبيعة عن جمعها ولهذا فإن إدراك الجمال إدراكا كاملا هو من الأمور الصعبة "(عفيف، ب،1997، 105)

أما الجمال المثالي المتعالي فيعرف بالعقل وحده وهذا الجمال مطلق ثابت لا يتغيّر يقابل النفس وهو مرتبط بالعقل الأول المرتبط بالواحد الأحد، ومنه يستمد ضياؤه وإن هذا الجمال هو وحده الجمال الخالد الذي لا يتغير بتغيره ولا يتبدل بتبدله حيث يرى التوحيدي أن صفات الله تعالى وأفعاله هي المثل الأعلى في الحسن وان الأشياء كلها تستمد جمالها من تلك الصفات والأفعال وحتى الجمال البشري فقير إلى الجمال الإلهي والكمال الإلهي غني عن الكمال البشري... (حسين، ص، 2003، 71) هذه النقطة بالذات برأينا تشكل المثل الأعلى للجمال في فكر التوحيدي ذلك أن الجمال نابع من مصدر واحد متمثل في الله يقول التوحيدي "إن الجمال الإلهي مصدر الجمال الكلي، وهو الجمال المطلق الذي تنعكس فيه جمالات الكائنات والأشياء"(عفيف، ع،1997، 137)

إن الحقيقة التي يجب أن تعرف هي أن مفهوم الجمال كما طرحه التوحيدي لا يقتصر على الموجودات الحسية والمادية،بل يتمثل أيضا في الشعور بالجمال الإلهي الذي لا يمكن لأي جمال أن يتفوق عليه أو يكون مثله،ومن هنا يدعو التوحيدي الإنسان إلى تقديم العقل على الحواس،وأن يستخدم كلاً منهما في المكان المناسب، فلا يرفع الوضيع إلى محل الرفيع، ولا يضع الرفيع في موضع الوضيع (التوحيدي، أ، 1960، 191/2) ويقول في موضع أخر:" ولما كانت جمالية الأشياء كلها مستمدة من الجمال الإلهي فان الوصول إلى هذا الجمال لا يكون عن طريق الحواس وإنما عن طريق العقل وحده فالحواس مهالك مضللة والعقول ممالك مدللة على الملك المالك"(حسين، ص،2003،95)

لقد انتبه التوحيدي منذ أمد بعيد إلى أهمية العقل في الحكم الجمالي فالوصول إلى الجمال لا يكون بالمشاعر، بل بالعقل حيث "جعل من العقل معيارا لتميز الجمال والحسن فما يستقبحه العقل يبقى قبيحا وما يستحسنه العقل يبقى حسنا "(الباجلاني، آ،28،2013)

ونفهم من هذا النص أن نفور التوحيدي من الحواس وتعلقه بالعقل راجع أساسا إلى كون جماليات الصور الإلهية لا تدرك بالأبصار،وإنما تدرك بنوع أخر أعلي وأشرف منها وهو العقل، فالعقل موجه الإنسان أما الحس فمصدر انحطاط الإنسان والوصول إلى الجمال حسب رأي أبو حيان التوحيدي يتم بالعقل لا بالأفكار والأحاسيس "(حسين، ص،2003، 91) وإذا كان التوحيدي هنا يعلي من شأن العقل فهذا لا يعني أنه يقلل من دور الحواس إذ لابد للعقل من الإحساسات،فالحواس هي التي تزود العقل بالمعطيات الأولية، ويستدل التوحيدي عن ذلك بموضوع تذوق الموسيقى حيث يشير إلى جانب هام من جوانب الخبرة الجمالية تلك التأثيرات الفيسيولوجية التي تنعكس على المتذوق عند مروره بالتجربة الاستمتاعية عند سماع الموسيقى "(يونس،ع،2015، 264)

والجدير بالذكر أن التوحيدي كان حريصا كل الحرص على تنزيه الله من كل الصفات الحسية الجسمانية حتى لا يقع التشبيه حيث استطاع التوحيدي أن" يرسي نظرية وهي قائمة على التصور الصوفي العرفاني للفن والجمال الذي يبرز حقيقة من خلال فهم طبيعة العلاقة بين الله والكون والإنسان هذه العلاقة التي تجري وفق مبدأ التجلي الإلهي والتجلي مراتب ومن ضمنها مرتبة الجمال من حيث هو من تجليات جمال

الصورة الإلهية مجازيا في الإنسان والموجودات" (محمد، ك،2010، 90) فالفهم الخالص للجمال المثالي هو إدراك واع لجمال مجرد وينطلق في ذلك من أن الجمال الإلهي هو الأصل الأول للجمال والحسن والبهاء هو الله "(رفاعي، أ،2002، 365)

والواقع أن التوحيدي يعتبر العالم فيض الهي صادر عن موجد الموجودات وغاية الإنسان في هذا العالم معرفة الله والوصول إليه عن طريق تحرير النفس من قيد الجسد يقول التوحيدي: "صفات الله تعالى وأفعاله هي من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها، وفي درجتها شيء من المستحسنات، لأنها تفيض بالحسن على غيرها، إن كانت معدنه ومبدأه، وإنما نالت كلها الحسن والجمال والبهاء منها وبها "(التوحيدي،أ،2009، 137) ويحسن بنا أن نعرف أن إدراك الجمال عند التوحيدي ويقصد المطلق منه يؤدي إلى لذة وسعادة لا نهاية لهما الله عنده يتصف بجميع صفات الكمال وهو أحق بها من كل مايو صف بها دونه' حيث يرى التوحيدي "أن الله هو مبدع العالم وخالقه ومصوره فهو اخترع هذا العالم وزينه ورتبه وحسنه ووشحه ونظمه وهذبه وقومه وأظهر عليه وأبطن في أفنائه الحكمة"(التوحيدي أ،1991، 27، 28)

كما يربط التوحيدي الجميل بما هو نافع وخير، من دون أن يفرق بينهم أو يغفل عن الغاية الروحية الكبرى للجمال، حيث حاول الباحث عفيف بهنسي تفسير هذه العلاقة بالقول:" وهو إذ يربط بين الجمال المادي والجمال المثالي ضمن نطاق نظرية الأخلاق وهو إذ يفسر التذوق الجمالي على أساس الطبيعة والذات فهو في مردود الجمال يعتمد المرجعية العقلية النفعية فيربط بين الجمال والخير أو بين القبيح والشر ولكنه مع ذلك كان ينادي بأولوية الجمال المطلق ثم لا يتردد في تأكيد دور المنفعة واللذة من التمتع بالجمال"(عفيف، ب، 1997، 137) ويفرق التوحيدي بين لذة التذوق الجمالي واللذة الحسية على أساس المتذوق للجمال يكون مشدودا نحو المعنى المجرد والقيمة الكلية للعمل الفني وليس مع المادة المحسوسة نفسها " (يونس، ع، 2015، 377) ونود أن نؤكد هنا شيئا له أهميته فمن المسلم به أن النفعية عند التوحيدي لها دور مهم في دائرة الحكم الجمالي إذ لا يقتصر ربطه بين مفهوم الجميل ومفهوم النافع على الجمال المادي وإنما يصله بالجمال المطلق فالخير الأمثل والجمال الأكمل هو إحداث الجمال المثالي للوصول إلى المطلق الله كلي الجمال (قلعجي، ع،1991، 18)

3.2 علاقة النفس بالجمال :

استطاع التوحيدي تحليل علاقة النفس بالجمال وتوسع فيها حيث عرض لمفاهيم الجمال بما يتفق مع النظرية العامة في النفس فقد جعل النفس هي مدار التفكير الجمالي منطلقا من أن الجمال هو الذي يستملي النفس فتعشقه وتميل إليه لأنها ترى فيه التناسق والاعتدال يقول معبرا عن هذه العلاقة :" الجمال هو التعالي ذاته وهو الوصول إلى الجمال، ولا يكون الشيء جميلا إلا إذا كان متناسبا في أجزائه كاملا خيرا ما يجعل النفس تميل إليه وتعشقه وتسعى إلى الاتحاد به "(حسين، ص، 2003، 104) والحب هو الوسط بين طرفين المحب والمحبوب وهو سعي المحب إلى الحصول على المحبوب الجميل الكامل فالحب تشوق إلى كل شيء كامل يثير في النفس الرغبة في امتلاكه والاتحاد به والتشبه به"(التوحيدي،أ،1929، 404) ولعل هذا ما جعل التوحيدي يدعو إلى العشق كانفصال عن الذات والالتحاق بالمعشوق لأن الإنسان يحاول الوصول إلى مصدر الجمال وإذا كان التوحيدي يدعو إلى العشق لأنه حركة نحو الكمال، فإنه يفرّق بينه وبين الشهوة التي هي من علائق الجسد،أما المحبّة والعشق فهما من علائق النفس والعقل (التوحيدي، أ،1960، 105/3) ويكفي أن تقرأ هذا النص لندرك هذه الحقيقة يقول التوحيدي :"فلما تم لنا هذا المراد منه لم تقنع النفس من صورة حروفه وأوضاع كلمة بدون صحة نسبته الوصفية كما تناسبت أعضاء الحيوان وتوازنت أجزاء النبات لأن النفس عاشقة في الجمال مخبولة على حب الحسن وهو تناسب طبيعي مرئيا كان أو مسموعا "(سعيد، ش،2011، 68)

أما وظيفة الجمال عند التوحيدي فهي تطهير النفس الإنسانية وتزكيتها عن طريق العشق لان النفس هي من تعيد خلق الموضوع الجمالي من جديد فيظهر تأثرها بالصورة الحسنة إلى درجة الاندماج والتوحد بين المتذوق والعمل الفني"(التوحيدي،أ، 1951، 140) ويضرب لنا التوحيدي مثالا عن التأثر الحاصل بين النفس والجمال من خلال علاقة الطبيعة بالفن يقول التوحيدي:" فإذا صنع الصانع تمثالا في مادة موافقة فقبلت منه الصورة الطبيعية تامة صحيحة فرح الصانع وسر وأعجب وافتخر لصدق أثره وخروج في قوته إلى الفعل موافقا لما في نفسه ولما عند الطبيعة (التوحيدي،أ، 1951، 140) ومن ثمة يكون الإدراك الجمالي ما هو إلا انفعال نفسي إزاء فعل النفس في الطبيعة التي تنظم صور الهيولى فإذا كان الفن هو اقتفاء صور الطبيعة التي تشكلت

بفعل النفس وأن تذوق الفن هو اتحاد النفس بأثر النفس وهنا نرى النفس في دورين دور فاعل يجعل الطبيعة موافقة لرغبة النفس ومطابقة لها مقتفية لجميع آثارها ودور منفعل تقوم به عملية الإدراك الجمالي."(أحمد، ع،1997، 104) لان النفس علامة بالذات دراكة للأمور بلا زمان، وذاك أنها فوق الطبيعة، والزمان إنما هو تابع للحركة الطبيعية، وكأنه إشارة إلى امتدادها، ولما كانت النفس فوق الطبيعة، وكانت أفعالها فوق الحركة، أعني في غير زمان، فإذا ملاحظتها الأمور ليست بسبب الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، بل الأمر عندها في السواء، فمتى لم تعقها عوائق الهيولى والهيولات، وحجب الحس والمحسوسات أدركت الأمور، وتجّلت بلا زمان (التوحيدي، أ،1951، 93)

إن أبا حيان يرى أن الصورة الفنية لا علاقة لها بالصورة الطبيعية تفارق هذه الصورة مفارقة تامة أو محدودة ولكنها صورة مفارقة على أية حال"(بهنسي،ع،1997، 130) والفنان يحاكي الطبيعة التي هي من صنع الله سبحانه وتعالى.

3. مآخذ الجمال عند التوحيدي:

قد نخطئ إذا حاولنا أن نفهم معنى الجمال عند التوحيدي بمعزل عن أراء بعض فلاسفة اليونان حيث يظهر تأثره الواضح ببعض مفاهيم الثقافة اليونانية في الجمال، وقد اخترت بعض الفلاسفة الذين كانت أفكارهم قريبة من أفكار التوحيدي.

1.3 أفلاطون:

يتفق التوحيدي مع أفلاطون في تفسير العالم حيث فسر التوحيدي هذا العالم ووجود الأشياء فيه تفسيرا دينيا صوفيا يغلب فيه مفهوم الإله على مفهوم الإنسان والكون يذكرنا هذا بنظرية المثل التي قال بها أفلاطون (رى، أرمسون، 45)

التوحيدي في فهمه للجمال الإلهي لا يبتعد كثيرا عن ما قاله أفلاطون بخصوص الجمال المطلق الذي اعتبره مصدر لكل أنواع الجمال، حيث وجد أفلاطون الجمال الحقيقي في عالم المثل اما التوحيدي فوجدها في صفات الله التي هي مصدر الجمال المطلق أما الجمال النسبي ما هو إلا وسيلة إلى الجمال المطلق لأن الله يبقى هو المطلق وهو الكل"(حسين، ص، 2003، 8)

وإذا كان الجمال عند أفلاطون هو التسامي، فهو نفسه عند التوحيدي التعالي ذاته خاصة في الجمال المثالي المتعالي الذي يعرف بالعقل،حيث يظهر تأثر التوحيدي الواضح بأفلاطون في نظرية الفيض، يقول التوحيدي :"أن الله هو منبع الأشياء كلها عنه تفيض

فيضا وفيه تغيض غيضا به على حد الخط الذي يرسم، بل على حد العقل في تعبير التوحيدي(عبد الناصر،ي،2006، 110)

ولعل أكثر التفسيرات اقترابا إلى الرؤية المعرفية القريبة بأفلاطون،هي مفهوم الكمال وعلاقته بالجمال الإلهي حيث يتفق التوحيدي مع أفلاطون:" بأن الله هو مبدع العالم وخالقه ومصوره، فهو اخترع هذا العالم وزينه ورتبه وحسنه ووشحه ونظمه وهذبه وقومه وأظهر عليه وأبطن في أفنائه الحكمة (التوحيدي أ،1929، 27، 28)

بالرغم من التشابه الموجود بينهما إلا أن هناك اختلاف بينهما وتأكيدا على ذلك نقول فإذا كان أفلاطون يرى أن الرائع " لا يوجد في عالمنا الأرضي،بل يوجد في عالم الأفكار عالم المثل العالم الأبدي اللا متغير،إنه لا يولد ولا ينقرض لا يزيد ولا ينقص بل هو رائع دائما وفي جميع الحالات" (برجاوي،ع، 1981، 208) فان التوحيدي لا يؤمن بهذا العالم المثالي الذي افترضه أفلاطون وربما راجع بالأساس لتأثر التوحيدي بالدين الاسلامي، حيث يرى أن صفات الله وأفعاله هي المثل الأعلى في الحسن وان الأشياء كلها تستمد كمالها من تلك الصفات والأفعال يقول التوحيدي "إن هذه الموجودات لا تستمد جمالها من جمال مثلها العليا، وإنما من صفات الله، وكل ما في العالم الأرضي من موجودات يتشوق إلى جمال الله وكماله ويسعى إلى الاتحاد به."(قلعجي، ع،1991، 17)

2.3 . أرسطو:

يتفق التوحيدي مع أرسطو في عدة نقاط ويختلف عنه في أخرى

فإذا كان التوحيدي يقول بالتناسب والكمال في الجمال، فإن أرسطو هو الآخر يعتبر "أن التناسق والانسجام والوضوح من أهم خصائص الجميل." (أنوكس، إ،1985، 21) ولعل التحيز هنا واضح لأفكار أرسطو التي تأثر بها حيث استفاد التوحيدي من رأي أرسطو في الجمال الإلهي غير قابل للإدراك والتجسيد والتمثيل لأنه يستحيل تمثيله بأي صورة من الصور أو تحديده.كما اخذ من أرسطو فكرة التشبه الفنان بالطبيعة ويتفق معه في القول انه بالنفس تتحدد مهمة إدراك الجمال.

أما في معيار الجمال لا نجد اختلاف بينها فقد جعل كلاهما العقل مقياسا للجمال حيث كان التوحيدي من أبرز المفكرين المسلمين الذين نهجوا نفس منهج أرسطو في فهم الجمال فقد عد أرسطو الجمال صفة لها وجودها الخارجي الموضوعي،والعقل يدرك

الجمال بخصائص موضوعية معينة في الموضوع الخارجي، أو في العلاقات التي بين أجزائه... ومن أهم صفات الجميل الترتيب والتناسب والوضوح والغائية وللوحدة والتنوع (حسن، وآخرون،2010، 19) كما يتفق التوحيدي مع أرسطو في القول أن الناس تجد المتعة في رؤية الشبيه لان في الاستدلال والتعرف على النموذجmodel متعة"(كلايف، ب، 2013، 27) ويختلف عنه في تعريف الإنسان فإذا كان أرسطو قد عرف الإنسان بأنه حيوان عاقل فان التوحيدي اعتبر الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكنه تذوق الجمال والتعبير عنه بالفن "وإذا كان الناس قد اعتادوا تميز الإنسان عن الحيوان بعقله أو نظره فقط فان التوحيدي يشير إلى سمة أخرى تميزه عن الحيوان إلا وهي الحاسة الفنية أو القدرة على تذوق الجمال"(إبراهيم، ز، 271، 272) فالفن من أخص خصائص الإنسان المفكر الملهم الذي يستخدم عقله انه ظاهرة إنسانية لا يستطيع الحيوان أن يشارك الإنسان في خلقها وإبداعها وهو من فعل النفس والإنسان إنسان بالنفس وليس بالروح ولا يستطيع الحيوان أن يشارك الإنسان في خلقها يقول التوحيدي :" إن الإنسان متميز عن الحيوان بالأيدي لإقامة الصناعات وإبراز الصور فيها مماثلة لما في الطبيعة بقوة النفس" (إبراهيم، ز، 272)

كما يختلف التوحيدي عن أرسطو أيضا في مفهوم المحاكاة فإذا كان أرسطو يعتبر "الجمال كامن في العقل الإنساني، وأن الفن لا يقف عند حد محاكاة الطبيعة، بل يكملها بما يبدعه الفنان فالطبيعة في رأيه ناقصة والفن هو الذي يتممها ويزينها"(أميرة، ح، 31، 32) ومثال ذلك عند أرسطو هو الشاعر ما دام محاكياً فعليه أن يتخذ طريقا من طرق ثلاث " أن يمثل الأشياء كما كانت في الواقع، أو كما يتحدث الناس وتبدو عليه، أو كما يجب أن تكون " (هلال، م، 1997، 55) أما التوحيدي يرى أن الفن يتشبه بالطبيعة والطبيعة فوق الفن، وليس في مقدور الإنسان التفوق على الطبيعة لان الفن متناه عكس الطبيعة فهي غير متناهية الطبيعة تتفوق على الفن ويحاول الفنان الماهر اللحاق بها، الإنسان تابع للنفس وليست النفس تابعة للإنسان لان الإنسان إنسان بالنفس" (عفيف، ب، 1997، 30) ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن مقولات "النفس،العقل،الإله، أخذت في رأي التوحيدي مغزى اشتباه الفن بالطبيعة، وهي فكرة مسبوقة من أرسطو على ما تم تصوره للفن بوصفه تقليدا للطبيعة، أو أن الطبيعة فوق الفن، وأن الفن يتشبه بالطبيعة"(عبد القادر، ف، 1990، 16)

3.3 أفلوطين:

اهتم التوحيدي بإيضاح علاقة الإنسان في هذا العالم بخالقه إنه المثلث الذي يعبر عن رؤية فلسفية ذات منحى جمالي يتمثل في علاقة الإنسان بخالق الكون والحياة والطبيعة في امتزاجها مع عقل الإنسان الذي يخلق الصورة الفنية،وتتطابق هذه الرؤية إلى حد كبير مع ما قاله أفلوطين في ارتباط الإنسان بالطبيعة ودورهما في عملية الخلق الفني "(عبد القادر، ف، 15،1990) كما يقترب التوحيدي من أفلوطين في التدليل على وجود الله حيث يستعير التوحيدي من الأفلاطونية المحدثة عدة مفاهيم خاصة عندما تعرض أفلوطين لظاهرة الوجود ضمن تجلياته المشرقة في العالمين الكبير والصغير وهو توجه أنطولوجي... "(عبد القادر،ف،1990، 14) زيادة على ذلك فإن الجمال هو حقيقة لا معقولة لا يستطيع بلوغها كما يقول أفلوطين غير الموسيقي والمحب والفيلسوف"(محمد، عباس،2003، 223)

والحقيقة كما يقول بعض الباحثين أن التوحيدي "... يمزج ما بين الإنسان والطبيعة ليجعل لهما عقلا واحدا في صنع الفن وتأدية الصورة الجميلة شأنه في ذلك شأن أفلوطين في إضافة الإنسان إلى الطبيعة في الإبداع الفني غير أن أبا حيان يتجاور بعبقريته خطوط الكثير من علماء الجمال ويتناول إزاء المفهوم الرياضي للتناسب في الجمال المفهوم الصوفي للربط ما بين ذائقة الإنسان النابعة من العقل والروح والنفس كما سبق أن قرر ويلح على أن الطبيعة ذات فاعلية في تكوين الأشكال عن وعي وتصميم ناشدة الكمال"(علي، ش،1985، 202) ولا يبدو غريبا أن التوحيدي عندما يفسر العلاقة القائمة بين العالمين بجعل العالم السفلي صورة عن العالم العلوي"(ذاعر،ش،1999، 82) إلا أنه يتخذ في تبرير هذه العلاقة بعدا دينيا حيث يؤكد أن العالم السفلي صادر عن العالم العلوي بفعل التكون والخلق الربانيين"(داغر، ش،1999، 82) كما يجب أن نؤكد هنا أن التوحيدي لا يخرج في شرح ذلك عن طبيعة العقيدة الإسلامية، فهو يقسم" الكون إلى عالمين علوي وسفلي روحاني وجسماني، إنما هذا الذي لحقنا في العالم السلفي حكاية عن ذلك العالم العلوي معتبرا أن " الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحق لان مصدرها من الله الحق إلى عالمان إذن متصلان تكوينا ومآلا"(داغر،ش، 1999، 81)

4.الخاتمة:

من خلال هذا المقال يبدو أن التوحيدي عالج الجمال بشقيه الذاتي والموضوعي المادي والمثالي وتكلم عن التذوق الجمالي وعلاقته بالنفس كما بحث في المدركات الجمالية وقدم تعريفات شاملة لمفهوم التمام والتناسب والكمال والاعتدال إضافة إلى ذلك أعلى من شأن العقل على الحواس في الحكم الجمالي واعتبر الجمال الإلهي فوق كل جمال وهو مصدر الجمال والحسن الجمال الكلي هو الجمال الإلهي المطلق الذي منه ينعكس جمال الأشياء والكائنات ويمتاز بالثبات وعدم التغير عكس الجمال الحسي المادي الخاضع للتغير حسب الزمان والمكان وبين أن الكائن الإنساني هو الوحيد القادر على تحديد الجمال والحكم عليه دون الرجوع إلى أحكام معيارية مسبقة.

لقد اقترب التوحيدي من تأسيس شبه نظرية في علم الجمال الإسلامي استقى معالمها من ثقافته الإسلامية وأضاف إليها تجربته وتجربة عصره ومنجزات الحضارة الإسلامية كما استفاد من أفكار الحضارات المجاورة المختلفة خاصة أفكار فلاسفة اليونان في الجمال أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو حيث جمع بين ما هو ديني وحضاري كل هذا عرضه بما يتفق مع عقيدته الإسلامية إذ يمكن اعتباره من الأوائل الذين عدلوا الكثير من المفاهيم الجمالية وجعلوها أكثر اتفاقا مع حيثيات الفكر الإسلامي خاصة العقيدة الإسلامية فهو في طرحه لمفهوم الجمال المطلق يساير أفلاطون الذي اعتبر الجمال محاكاة للجمال الإلهي كما نلمس اقترابا واضحا مع أرسطو في جعل العقل مقياسا للجمال كما يقترب من أفلوطين في قوله بالفيض الإلهي وان الأشياء تكون جميلة إذا انعكست فيها الفكرة الإلهية.

المصادر والمراجع

المصادر:

- أبو حيان، التوحيدي. (1929). المقابسات، ط1، القاهرة، مصر: المطبعة الرحمانية
- أبو حيان، التوحيدي. (1944). الإمتاع والمؤانسة، ج1، القاهرة، مصر.
- أبو حيان، التوحيدي. (1951). الهوامل والشوامل. القاهرة، مصر: طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- أبو حيان، التوحيدي. (1960). الإمتاع والمؤانسة. بيروت، لبنان: دار الحياة.
- أبو حيان، التوحيدي. (1989). المقابسات، ط2، بيروت، لبنان: دار الأدب.
- أبو حيان، التوحيدي. (2009). الهوامل والشوامل. القاهرة، مصر: مكتبة الأسرة
- أبو حيان، التوحيدي. (1991).المقابسات، سوسة، تونس : دار المعارف للطباعة والنشر .

المراجع:

- آزاد، محمد كريم الباجلاني. (2013). القيم الجمالية في الشعر الأندلسي عصر الخلافة والطوائف. عمان، الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع.
- أحمد، عبد الهادي. (1997). أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة. القاهرة، مصر: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- إز، أنوكس. (1985). النظريات الجمالية كانط ـ هيغل ـ شوبنهاور، ط1، (ترجمة محمد شفيق شيا). بيروت، لبنان: منشورات بحسون الثقافية.
- برجاوي، عبد الرؤوف. (1981). أصول في علم الجمال، ط1، بيروت : منشورات دارا الآفاق الجديدة .
- بهنسي، عفيف. (1997). الفكر الجمالي عند التوحيدي. القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- حسن، أ. وآخرون. (2010). فلسفة الجمال عبر العصور، ط1، عمان، الأردن: دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع.
- حلمي، مطر أميرة. (ب.د.ت). فلسفة الجمال. سلسلة كتابك رقم (137)، القاهرة: دار المعرفة.
- زكرياء، إبراهيم. (ب.د.ت). أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، سلسلة أعلام العرب (35). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- شربل داغر. (1999). الفن الإسلامي في المصادر العربية، صناعة الزينة والجمال. بيروت، الكويت: المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، دار الآثار الإسلامية.
- شريفي، محمد بن سعيد. (2011). اللوحات الخطية في الفن الإسلامي المركبة بخط الثلث الجلي، دراسة فنية في خط الثلث العربي،ط1، تلمسان، الجزائر: شركة ابن باديس للكتاب.
- شلق، علي. (1985). العقل في التراث الجمالي عند العرب، ط1، بيروت: دار المدى للطباعة والنشر، دار نعمة للطباعة.
- الصديق، حسين. (2003). فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبو حيان التوحيدي، ط1 حلب، سوريا: دار القلم العربي، دار الرفاعي.
- عبد الفتاح، محمد رواس قلعة جي. (1991). مدخل إلى علم الجمال الإسلامي، ط1، دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع.
- عزت، السيد أحمد. (2006). فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي. دمشق، سوريا: منشورات وزارة الثقافة
- عيد، سعد يونس. (2015). فلسفة الفن والجمال في الفكر الاسلامي. القاهرة: عالم الكتب.
- فيدوح، عبد القادر.(1999). الجمالية في الفكر العربي، دراسة. منشورات دمشق، سوريا: اتحاد الكتاب العرب.

- جوناثان، رى ووج، أو أرمسون. (ب.د.ت). الموسوعة الفلسفية المختصرة. (ترجمة كامل، ف. وآخ)، بيروت، لبنان: دار القلم.
- الكحلاوي، محمد. (2010). الفن الإسلامي المفهوم النشأة والجماليات سلسلة الفنون والجماليات، ط1، تونس: المطبعة المغاربية للطباعة والإشهار منشورات كارم الشريف.
- كلايف، بل. (2013). الفن، (ترجمة عادل مصطفى)، ط1، القاهرة، مصر: روية للنشر والتوزيع.
- محمد، علي عبد المعطي ورواية، عباس. (2003). الحس الجمالي وتاريخ التذوق الفني عبر العصور. الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر.
- محمد، غنيمي هلال. (1997). النقد الأدبي الحديث القاهرة، مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ياسين، عبد الناصر. (2006). الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، دراسة في ميتافيزيقا الفن الإسلامي، ط1، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.

الرسائل الجامعية:

- أنصار، محمد عوض رفاعي. (2002). الأصول الجمالية والفلسفية للفن الإسلامي (أطروحة دكتوراه غير منشورة). مصر، كلية التربية الفنية، قسم علوم التربية: جامعة حلوان.